عقاب النفس

﴿ الجزء الاول ﴾

دقت الساعة السادسة صباحاً عندما قامت استر من سريرها وقد قضت ليلها الفائت براحة تامة حتى انها لم تتحرك من جنب الى جنب كما هو شأن الفتيات الطاهرات امثالها الاواني متمتعنَّ الطبيعة بقلوب نقية وجمال فتان

وسمعت جرس الفطور يدق فاسرعت ولبست ملابسها واصلحت شعرها موقتاً حتى كانت على المائدة قبل الابتداء بالاكل

وبعد الفطور خرج والدها لاشغاله وقد كان تاجراً غنياً كثير الاعمال التي كانت تستغرق كل وقته فلم يرَه احد دخل منزله قبل العاشرة مساء وكان يخرج مبكراً جداً وقلما كان يمكث بمنزله ولذلك كان ولده الوحيد جورج وابنتيه استر هذه وميتلده لا يهتمون به غاب او حضر

وعند الساعة العاشرة خرجت والدتها لزياراتها وتركت لها اختها الصغرى متيلده لتعتني بها وقت غيابها

فأخذت متيلده تصرخ بكل قوتها باكية ومنادية امها ففعلت استر كلما في وسعها لاسكاتها فلم تسكت فأخذتها ونزلت بها الى حديقة المنزل لتلاعبها فيها ريثما تأتي امها

وكانت هذه الحديقة صغيرة الحجم جميلة الترتيب ذات سور حديدي صغير يحفظها من ارجل المارة

وجلست بها تلاعبها حتى ملّت لانهـا كانت تنتظر من وقت لآخر الى باب السور مترقبة اياب والدتها

وكان ذلك اليوم احد وهو يوم الفسحة المدرسية لاخيها جورج الذي كان اكبر منها بسنتين ولذلك جاء بصديقه وليم الذي كان يتردد عليهم من وقت لآخر فوجدت استر بعض التسلية في مجيئهما وعلى الخصوص وليم لانها كانت تسرّ بكلامه

العذب ونكاته الحلوة

وكان وليم هذا تلميذ بالمدرسة التي كان فيها جورج وهو ابن احد الاغنياء ذو جمال مفرط وظاهره يدل على طهارة سريرته وسلامة نيته فلعبا الكورة وشاركتهما استر في اللعب من جهة وكانت تلاحظ اخاها من الجهة الاخرى حتى جاءت والدتها فاخذت متيلده وتركت استر مع اخيها وصديقه يلعبون في حوش الحديقة . .

. . . . . .

مضت الآن ثلاث سنوات فصارت استر في الثامنة عشر من العمر واخوها في العشرين وكان وليم يتردد عليهم كل هذه المدة وكان يتودد كثيراً للفتاة حتى صارت المودة متينة بينهما

اصبحت الآن استر تدرك ما كانت لا تدركه في الماضي من نظرات وليم التي كانت تظنها صادرة عن قلب طاهر شريف ومن اين لاستر ذات القلب الطاهر الرقيق ان تدرك غير الطهارة وسلامة الضمير ؟ . . . . .

. . . . . .

جاء وليم في احد الايام ولم يكن في البيت سوى استر اذ كانت امها في زيارتها. فانفرد و باح لها بحبه ورجاها ان تقبله عريساً لها بلغة تستطيبها نفوس الفتيات امثالها ولو ان تحتها السم الزعاف . . فجاوبته واجمة منكسة الطرف في اول الامر . ولكنها أخذت تتشجع رويداً رويداً حتى اجابته بحسب لغته . لان المسكينة كانت تحبه

وهكذا افتتحا خلوتهما هذه بتحية عادية وختماها بقبلة وبموعد . وامها المهملة مشغولة عنها في زيارتها لا تفقه لما يدور في بيتها . ولا تعلم ان شرفها وشرف ابنتها في يد فتى لا تعلمان من امره سوى انه رفيق لجورج . . . . وظلت الام جاهلة كل هذه العلاقات وكانت ترى ابنتها تتزين كثيراً فتهمل ملاحظتها وتعزو ذلك لتقدمها في السن ولرغبتها في ان تكون جميلة دائماً كالفتيات امثالها

رويدكِ ايتها الام المسكينة فاهمالكِ اياها سوف يسبب لكِ ولها عذاباً وتعاسة الى آخر العمر

مضت ايام على الاجتماع الاول الى ان جاء يوم زواج ابنة اخيهـا فذهبت الأم بولدها وبزوجها و بابنتها الصغرى الى العرس اما فتاتنا استر فقد اختلقت صداعاً موهوماً وتأخرت عن الذهاب، رغبة في ان تتمتع برؤية حبيب فؤادها وزوجها المنتظر. ذلك الذي كانت تتخيل سعادتها بين نظراته . ولا ترى الحياة الا بجانبه . . . . .

كتبت اليه تذكرة صغيرة تدعوه اليها وجلست تعد الدقائق خائفة ان يتأخر عن المجيء . . . .

ولكن اتى لوليم ان يتأخر وما به من الشوق اكثر مما بها لهـذا اللقاء . يترقب الفرص و يغتنم الصدف علّه يحظى برؤيا تلك التي سلمت اليه قلبهـا . واجابته الى سؤله راضية خاضعة . . .

جاء الموعد فكان اسبق له من الوهم وما هي الا برهة حتى كان جالساً بجانبها وممسكا بكلتا يديها ناظراً اليها نظرة كلها وَلَهٌ وشغف وهي تجيبه بنظراتهـا الساكنة الطاهرة . وما اتصل بنار حبهما حتى أخذ يؤثر في فؤاديهما وما برح يزداد قوة وهما يزدادان خضوعاً حتى سلما امرهما اليه يفعل فيهما ما شاء وشاءت اهواؤهما . . .

. . . . . .

وكما انفتحت اعين آدم وحواء في تلك اللحظـة التي اكلا فيها من الشجرة وعلما انهمـا عريانين . . . هكذا شعرت هذه الفتاة انها عريت من ثوب الطهارة والعفة ووخذها ضميرها كثيراً فندمت ... فيا ايتها الام المهملة انت الآن في بيت اخيكِ تشاركينه في افراحه لاعبة لاهية وستنامي بملء جفنيكِ نابذة المسئولية الادبية التي تقع على عاتقكِ نحو اولادكِ . . . . استيقظي استيقظي فقد سرق منكِ اثمن كنز في العالم — سرق منكِ قلب طاهر شريف — سرقت منكِ نفس عزيزة عليكِ وانتِ فرحـة جزلة فسوف تبكين دماً — وسوف يؤنبكِ ضميركِ على اهمالك هذا فتتعذبين وتشقين وانك بعدل تستحقين ذلك العذاب وهذا الشقاء

وفي الصباح انتهت الافراح وعادت الأم الى بيتها فوجدت ابنتهـا صفراء الوجه فظنت ان ذلك لتأثير الصداع عليها وسيزول بعد قليل — ولم تعلم ان ذلك

الاصفرار سيلازمها الى ان تلفظ النفس الاخير

مضت ايام كثيرة والشاب يتردد عليهم الى ان شعرت في احد الايام تلك المسكينة بالخطر الاكبر فانفردت لوليم وطالبته بوعده لها ان يتزوجها فخلع وقت ذاك ثوب الرياء وكشف حجاب لطفه وتوددهِ الظاهري عن نفس سافلة واداب ساقطة وخشونة لا تقف امامها خشونة الحيوان واجابها لفوره ان هذا الأمر ضرب من المحال وهكذا طفحت كأس شرور ذلك الانسان . . . . . .

. . . . . .

لا يمكن لي ان اصف الحزن الذي حاق بأستر وقتذاك : فتصور ما شئت ايها القارئ معي من اشكال العذاب ومضد الحزن فقد وصلت استر الى اشد درجات اليأس ورأت المسكينة انه لا يجب ان تلوث هذا المنزل الطاهر باكثر مما لوثته فارادت ان تحافظ على بقية شرف عائلتها الذي اضاعته ورأت انه ليس من العدل ان تعذب غيرها بعذابها فأرادت ان تفعل ما من شأنه ان يستر زلتها ويحفظ شرف عائلتها . فلم ترَ اوفق من ان تهجر هذا المنزل الذي ولدت فيه وتلك البلدة التي ربيت وشبت فيها فينسب الناس سفرها الى اسباب متنوعة ولكن الحقيقة تلبث مجهولة الى الابد ويبقى شرف آلها وذويها سليماً من العيوب . . . . . .

. . . . . .

بعد ذلك بأيام قليلة قرع جرس الفطور كالمعتاد فاجتمعت العائلة على المائدة ما عدا استر فذهبت الخادمة لاستدعائها فوجدت الباب مغلقاً ومفتاحه من الخارج . ففتحته فوجدت الفراش كما هي لم تمس مما دلها على ان استر لم تنم فيها الليلة الماضية ... فابلغت ذلك لوالدتها التي قامت هي ايضاً وبحثت كثيراً فلم تجدها — وفي اثناء بحثها وجدت قطعة من الورق موضوعة على مكتبتها - فأخذتها وقرأت فيها ما يأتي :

انكِ يا امي اهملتني فخسرتني — انا حزينة وتعيسة . فارثي لحالتي واشفقي عليَّ . انتِ السبب في بؤسي وشقائي ولكنني اسامحكِ . ويكفكِ ما ينالكِ من تأنيب ضميركِ ولي اليكِ وصية أخيرة هي ان تلاحظي اختي لئلا تخسريها ايضاً . شأن

الام التي لا تهتم بملاحظة اولادهـا . اقبلكِ من بعيد واطلب ان تصفحي عني كما صفحتِ عنكِ . استر

. . . . . .

فقرأت هذه الورقة بنفس مرة ومزقتها وكتمت امرها ومن هذه اللحظة ابتدأ عذابها الاليم

وقد بحث اهلها عليها بحثـاً كثيراً وعبثاً حاولوا الوقوف على مقرها — واصبحوا جميعهم في حيرة شديدة يستغربون سفرها الفجائي ولا يعلمون اسبابه — وصارت لهم استر واسطة شك وعذاب هائل فـلا يعلموا ان كانت على قيد الحياة فينتظروها — او في عداد الاموات فيندبوها . . . . . .

ولا تـل عن عذاب الام فقـد اصبحت بين نارين فهي لا تقدر ان تذكر لهم ما لاحظته في سفرها من الورقة التي تركتها — ولا تعلم مقرهـا فتذهب اليها وتشجعها — وأخذ ضميرها يؤنبها ويزعجها فلم تجد ساعة راحة في كل ايام حياتها وهو جزاء نالته باستحقاق . فلو كانت بجانب فتاتها وقت ذاك لوجدت تلك قوة بها تعينها من الزلل

. . . . . .

اما ذلك الوغد وليم فخرج من مدرسته فائزاً ونال شهادتها العليا وصار له مركز جميل في الحكومة وبقيت ايضاً صداقته لجورج كما هي — فلا تعجب ايها القارئ فقد قال سليمان الحكيم (يوجد باطل يجري على الارض . ان يوجد صديقون يصيبهم مثل عمل الاشرار — ويوجد اشرار يصيبهم مثل عمل الصديقين — فعلمت ان هذا ايضاً باطل)

ورويدك قليلاً فسيأتي يوم وهو قريب يحاسب فيه عمـا صنعت يداه (فان الذي يزرعه الانسان اياه يحصد ايضاً)

. . . . . .

في قرية بعيدة بيت صغير في موضع منحط وهواء فاسد يدل ظاهره على ما في

داخله من بؤس وشقاء . هناك ان تأمل النـاظر يجد في قاعة منه قليلة النور فراش حقيرة على ارض رطبة وعليهـا جسم كالخيال انهكه الشقاء يئن من مرض ثقيل وبجانب الفراش طفلة صغيرة ابنة ثلاثة ايام . . . دخلت هـذه الابنة الى الدنيا الواسعة من باب الفقر الضيق والموت واقف لها بالمرصاد ولكنها لا تموت بل تعيش فقد شاء الله ان يجعلها واسطة له في عذاب النفس الشريرة — وكانت هذه الطفلة تصرخ جائعة والأم لا تعي لشدة مرضها

تلك هي استر الجميلة المسكينة — استر ذات القلب الطاهر — استر المتنعمة المترفهة . تعيش في هذا الموضع القذر — نعم هي الخطية التي تسقط بالانسان الى احط دركات الهوان

تلك هي استر التي ندمت كثيراً وتعذبت اكثر ويظهر ان عقابها لم يتم بعد وعذابها لم ينتهِ بل هو سيشيعها الى القبر — خرجت من منزل والدها والقت عصا ترحالها في هذه القرية — واستأجرت هذا الكوخ وأوهمت الناس انها ارملة وعاشت بينهم كل مدة حملها وضميرها لا يزال يوخزها وكانت تقتات من عملها في الحقول حتى وضعت ابنتها البكر التي ستكون اسمها (اسماء) واصيبت بحمى النفاس . والحمى شديدة عليها — وجسد استر ضعيف من العمل الذي لم تتعوده ونحل من عذابات الضمير — ولذلك تراها تتقلب على فراشها كأنما هي على حجر . . . .

. . . . . .

وبعد قليل دخل رجل الى كوخها — من يتأمله يعلم لاول وهلة انه خادم ديني وجلس بجانب فراش العليلة وجس يدها فعلم ان الحمى ثقيلة عليها فركع وأخذ يصلي فتحركت العليلة وفتحت عينيها فرأت ذلك القس راكعاً فانتظرت ريثما اتم صلاته وسألته عما يراه في حالتها فصبرها وشجعها واخرج كتاباً من جيبه وقرأ لها فصلاً فيه فقالت انها لا تخاف الموت الاَّ لانها خاطئة . فعلمها ذلك الرجل الصالح ان الرب مستعد لقبولها الى آخر نسمة من حياتهـا . فاظهرت اشتياقها ان تقرأ فصلاً بنفسها فاجلسها واسندها فسكت الكتاب وفتحه فكان اول فصل وقع عليه نظرها « ولا انا ادينك

اذهبي ولا تخطئي بعد » فاشرق وجهها ونامت براحة تلك الليلة

وفي اليوم التالي جاء القس الصالح ومعه مرضعة وسلمها الطفلة اسماء — اما العليلة ففتحت عينيها متهللة بروءيا ذلك القس واغمضتهما ثانية ولفظت نفسها الاخير بين ذراعيه وهي واثقة انها ذاهبة الى السماء وكان ذلك ختام حياة استر وقصتها

﴿ ابنتي زوجتي — عقاب مخيف ﴾

— الجزء الثاني —

الفصل الاول — رجل فكه —

مضت الايام وكرت السنون فأتى على حوادث روايتنا الاولى خمسة عشر عاماً وبرزت الغزالة رويداً رويداً في صباح احد ايام الصيف على مدافن صدفا . تلك البقعة الهادئة . فاستقبلتها طيور السماء بالسرور والتغريد . . .

هناك جلس ايوب اللحاد ليستريح امام باب احدى المدافن . وبيده فأسان من الحديد بعد ان انتهى من فتح احد القبور . . .

وكان ايوب هذا بعين واحدة لطيف الكلام . فكه الحديث . ميالاً للسرور والمزاح في كل اقواله وافعاله . . . ولعله تعود ذلك من كثرة مزاولته لدفن الموتى وعلم انه لا بد له ان يموت . فقال مع سليمان الحكيم (فمدحت انا الفرح لانه ليس للانسان خير تحت الشمس الاّ ان يأكل ويشرب ويفرح وهذا يبقى له في تعبه مدة ايام حياته)

ومكث ايوب يترقب قدوم النعش فطال انتظاره . فقال لنفسه ما دام الميت نائماً ومرتاحاً الآن . فلماذا لا انام انا ايضاً مثله الى ان يأتي ؟

وللحال وضع فأساً تحت رأسه ووضع الاخرى بجانبه . وتوسد الارض مستلقياً على ظهره . متلذذاً بهواء الصباح الجميل . فوقع في سبات عميق . . .

وبعد برهة مرّ عليه رجل يعرفه فوكزه في يده . ففتح عينيه وتبسم . . . فسأله

ذلك الرجل ماذا تفعل هنا يا ايوب ؟

قال سؤال بارد ... وماذا تريد ان افعل ؟ وانت ترى فأسي بين يدي ان لم يكن لدفن احد اقر بائك ...

قال ومن هو قريبي هذا ؟

قال ابن عمك آدم ... فضحك الرجل وقال انت دائماً تضحك يا ايوب حتى عند دفن الموتى ...

قال وهل تريد ان ابكي عند دفن كل واحد وانا ان فعلت هكذا لا سيما وانا بعين واحدة لفقدت الاخرى واصبحت اعمى لا اراك . وذلك يسوء الموتى الذين لا يسرون الا اذا دفنتهم بيدي ...

قال وما هذه الفأس الاخرى أتشتغل بفأسين يا أيوب ؟ قال كلا ... اسمع فانبئك بقصتها .. من عشر سنوات توفت زوجة هذا الرجل فدفنتها .. والظاهر انها استحسنت فأسي فتركتها لها سبواً .. وقفلت انقبر عليها ... ومكثت انتظر ان يموت احد اقاربها فادفنه وآخذ فأسي .... فبقيت منتظراً للآن ... فما اطول عمر هذه العائلة ... حتى مات زوجها بالامس .. فبكرت اليوم وفتحت القبر له واخذت فأسي .. وعلمت ان تلك المرأة امينة جداً .. فقدمت لها تشكراتي القلبية على حراستها فأسي عشر سنوات ...

فاستلقى الرجل من الضحك وقال ومن ذا الذي قد مات اليوم ؟ قال احد تجار البلد .. قال ولماذا لم يأتوا به للآن ؟ قال لانه لم يتناول طعام الفطار بعد .. فضحك الرجل وقال انك يا ايوب لن تترك الهزل حتى تموت . فقال آمين .. وتركه الرجل وذهب لعمله

وبقي ايوب جالساً الى ان ظهر الجناز في طريق البلد . يتقدمه المشيعون من الرجال . فالقسوس . فالتلامذة يرتلون . فالنعش محمولاً على اكتاف الرجال . فاهل الفقيد . ويلي ذلك المشيعات من النساء ... ولما رأى ايوب الجناز قام

(البقية تأتي)